لم نستطع ايصال ثقافتنا الى «الاخر»:

الروائي الجزائري أمين الزاوي: الثقافي هو رهان المستقبل بعد فشل السياسي والعسكري والاقتصادي

الجزائر ـ «القدس العربي»

ـ من فاطمة عطفة:

أمين الزاوي روائي جزائري يكتب باللغتين العربية والفرنسية وأستاذ الأدب المغاربي والترجمة بالجامعة الجزائرية ـ كلية الآداب ـ وهران. من أعماله الإبداعية باللغة العربية: صهيل الجسد، السماء الثامنة، الرعشة، وحشة اليمامة (صدرت في دمشق أيضا بعنوان: رائحة الأنثى)، يصحو الحرير. أقام في سورية فترة أربع سنوات حصل من جامعة دمشق على إجازة في الأدب العربي، وكانت ترافقه خلال تلك السنوات زوجته السيدة ربيعة الجلطي، وهي كاتبة وأستاذة جامعية أيضا. وقد توج حبهما بياسمين الشام. في مكتبه في «المكتبة الوطنية» كان هذا الحوار معه:

■ أنت من المنشغلين في الترجمة ولك فيها دور كبير، كيف تنظر إلى الترجمة في العالم العربي؟ وهناك تهم بالعشوائية وعدم التنظيم وعدم التراكم الثقافي، وما اقتراحاتك؟

■ أنا في الحقيقة جئت إلى الترجمة بشكل هاو مع أنني عملت أكثر من سبع سنوات في الجامعة أستاذ ترجمة، لكن على مستوى الممارسة، ولأنني أمارس الكتابة باللغتين العربية والفرنسية، هذا الذهاب بين لغتين دفعني وشجعني إلى التفكير في ممارسة الترجمة. كان لي الشرف بأني ترجمت ثلاثة كتّاب أنا أعتقد أنهم من أهم الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية، ومنهم «محمد ديب» يكتب بالعربية، وترجمت أيضا الروائي الذي أصبح الآن ظاهرة في أوروبا وهو «ياسمين حضري» وترجمة أيضا من الإسبانية «كاسيه ماركيز» إلى اللغة العربية. وفي تصوري أن الترجمة العربية بشكل عام غير محترفة. أتعرفين أن كل ما ترجمه العرب منذ «إسحاق بن حنين» وهو أول مترجم حتى الآن لا يتعدى ما ترجمته أسبانيا في ظرف سنتين؟ إذاً، يجب أن ننظر إلى المسألة بهذه الكارثة، وأعتقد أن الشعب لا يمكن أن يتطور إلا بالترجمة.. وكذلك الحضارة. نحن مجبرون إذا أردنا أن نحافظ على لغتنا العربية وعلى ثقافتنا العربية أن نترجم لهذه الأجيال إلى هذه اللغة الجميلة. الترجمة العربية بالإضافة إلى ذلك لا تحترم جملة من القوانين العامة كاحترام حقوق المؤلف والمترجم، وكل هذه المسألة حضارية. بعض الكتاب الكبار التقيت بهم في باريس يقول لي الترجمة إلى اللغة العربية تتعرض للقرصنة. يقولون إن كتابك مترجم في دمشق أو القاهرة أو أحد بلدان المغرب دون علم الكاتب ودون موافقته. إن الترجمة العربية لحد الآن غير مدروسة وغير مؤسسة على تقاليد وعلى نقاش جاد. وما هو مطلوب تشكيل على غرار المجالس العلمية، ومجالس اللغة العربية، تأسيس مجلس عربي للترجمة توضح من خلاله استراتيجية معينة حتى نضبط آلية الترجمة للغة العربية، ونضبط رزنامة معينة للترجمة، ونضبط أيضا الوقت بالنسبة للترجمة، لأننا إذا لم نضبط كتاباً تجاوزه الزمن فلا داعي لترجمته.

■ إلى أين وصلت الرواية العربية والجزائرية، وخاصة المترجمة منها؟

■ عندنا روائيون أخذوا موقعهم في العالم. اقرأ مثلا إبراهيم الكوني في ليبيا أقول هذه رواية عميقة لا يهمني كان ليبيا أو مصريا أو جزائريا أو من أي بلد آخر، أقول إبراهيم الكوني روائي كبير، وأقول زكريا تامر قاص كبير، لا يهمني كان سوريا أم مغربيا، وأقول أمين معلوف روائي عربي كبير يكتب بلغة أخرى، هو الظاهرة الجديدة الآن. هناك روائيون عرب يكتبون بلغات أخرى، ولكن يكتبون فضاءات عربية، وهم يكتبون حتى باللغة الفرنسية ولكن يكتبون بحس عربي ويكتبون بجملة عربية مترجمة، إذا صح التعبير. حينما أقرأ أمين معلوف أو طه بن جلون أو رشيد بوجدرة، أشعر أنني أقرأ نصاً مترجما من العربية، هو يفكر باللغة العربية ويكتب بأداة أخرى ليست الفرنسية التي يكتب بها الأوروبيون. الفرنسية التي نكتب بها نحن هي فرنسية أخرى ليست الفرنسية الباريسية، لو كنا نكتب بالفرنسية الباريسية لما انتبه أحد لأدبنا. إذاً نحن نكتب بلغة أخرى، وأعتقد أن قوة اللغة تكمن بأن كل واحد يستطيع أن يخلق لغته، بمعنى على مستوى الإبداع وليس على مستوى المفاهيم. انطلاقا من ذلك، أعتقد بأن الرواية العربية أنجزت أشياء كثيرة لحد الآن.

ولكن مشكلة المقروءة، أو المقروئية قائمة، إن العالم العربي أكثر من 200 مليون، بينهم 20 مليون جامعي.. ولكن سحب الرواية 1000 أو 2000 نسخة لا أكثر.

هذه كارثة كبيرة، وليس على الرواية فقط، يقاس ذلك على الشعر وعلى الأدب الفكري.. إلخ. أعتقد أن الرواية العربية تحتاج لتوصيلها، أنا لا أشك في نصوصها ولكن نحتاج إلى مسألتين أساسيتين، الأولى هي تنشيط حضارة الكتاب وهي قضية مركزية. العرب لا يعرفون التعامل مع الكتاب، يعتقدون بأن الكتاب تجارة مثل التجارات الأخرى. هذا خطأ. إن حضارة الكتاب تتطلب حسا آخر وثقافة أخرى وتدخل الدولة في هذا الباب ضروري جداً. بل مسؤلية أساسية. النقطة الثانية علاقتنا مع الآخر في ما يتصل بالأدب. لا يوجد هناك مثلا ما يسمى وكالات للأدب العربي التي تبيع الأدب العربي إلى الخارج كما هو موجود في أوروبا أو أمريكا، فما يترجم من الأدب العربي إلى الخارج هو قائم على الصدفة، وكثير من المرات على العلاقات الخاصة، مثلا روائي عنده صديق في إنكلترا يعرف مترجما، يعرف أستاذا جامعيا.. وبذلك تتم الترجمة.

■ في الجزائر، الدكتور أمين الزاوي مدير هذه المكتبة الوطنية الضخمة، ماهو دوركم في توصيل الكتاب والتبادل الثقافي؟

■ دور المكتبة الجزائرية يتمثل في قضيتين أساسيتين، أول ما يهمني وضع سياسة في المطالعة العمومية بمعنى خلق شبكة من المكتبات على مستوى الداخل، على مستوى المدن الصغرى والمدن المتوسطة والمدن الكبرى من أجل الحفاظ على القارئ ومن أجل توزيع الكتاب في وقته، وأيضا وضع سياسة الكتاب، ما هو الكتاب المقروء. لماذا هذا الكتاب مقروء؟ من هو القارئ؟.. إلى غير ذلك، هذه مسألة تهمني جدا في الدور الذي تتحمل أعباءه المكتبة الوطنية. بطبيعة الحال المكتبة الوطنية هي التي تحفظ ذاكرة البلد. كل ما ينشر في الجزائر من كتب حتى الكاسيتات تحفظ. وهي حافظة لذاكرة الأمة للأجيال القادمة. النقطة الثالثة المكتبة هي بيت الحكمة، بمعنى أنها هي فضاء للندوات الفكرية الكبرى. أقمنا ندوة عالمية حول جاك بيرك، ندوة عالمية حول المفكر مصطفى مشرف، وندوة حول الرحالة العرب أيضا، وندوة حول دور المكتبة في المدينة. وهناك نشاطات نقوم بها وهي ما يطلق عليها المقاهي الأدبية، والفلسفية والفنية. إن المكتبة الوطنية مؤسسة ليست فقط مرتبطة بالكتاب، إنما هي أيضا ترويج للكتاب ودعم الكتاب. كنا نقول في البداية إن الكتاب إذا لم يروج له، إذا لم يحتفل به احتفالا لائقا ما أعتقد أن أحدا سينتبه إليه. إذاً بقدر ما نعمل لتسويقه كي لايظل الكتاب في الرفوف مثل العلب عند البقال، فإنه يتحرر. فالمكتبة ليست مقبرة للكتب، هي أساس حياة للكتب وهي أيضا دار نشر. هناك عدد من الكتب التي أصدرناها، وهناك مجلتان مجلة الثقافة التي كانت تصدرها وزارة الثقافة، والآن المكتبة مكلفة بإصدارها، وننشر أيضا مجلة متخصصة عنوانها «الكتاب» تهتم أساسا بما يصدر من كتب بالجزائر وحول الجزائر.

■ هناك دائما اتهام لحركة النقد العربي أنها لم تتطور. كان هناك في الخمسينات حركة نقدية نشيطة وكان الأمل أن تؤدي لتأسيس نظرية نقدية عربية، لكن هذه المساعي لم تنجح. كيف تنظر إلى حركة النقد العربي الآن، وخاصة من منظور الرواية؟

■ سوف أشير إلى فكرتين، أولاً تحول الصحفيون إلى نقاد واحتلوا في الصفحات الثقافية مكان الناقد، وأصبح الصحفي يقيم الأدب ويقيم الرواية، ويقيم الشعر وكل شيء. طبعا هذه حالة شاذة وغير صحيحة وهذه موجودة في كل العالم العربي. في الدول الأخرى الناقد الصحفي هو ناقد صحفي، الصحافة الثقافية هي ليست نقداً، نحن اختلط علينا الأمر بين الصحافة الثقافية والأدبية، وتحول هؤلاء الصحفيون في الشأن الثقافي فأخذوا يتحدثون بأن هذا الكتاب ناجح وهذا الكتاب غير ناجح، هذا الأديب وهذا الشاعر مهم، وهذا غير مهم. نحن نحتاج إلى صحافة ثقافية، وهذه مهمة جدا ولكن ليس بديلا عن النقد الأدبي. النقطة الثانية هي أن النقود الجامعية نقود لاروح فيها، كل ما ينجز من رسائل جامعية في العالم العربي وكان لي الحظ أنني عشت في دمشق وأيضا في باريس وفي الجزائر وأشرفت على مجموعة كبيرة أيضا من الرسائل التي تجاوزت مئة رسالة. أعتقد بأن من النادر أن تنجز رسالة جامعية وتقرأ. والأساتذة الجامعيون تحولوا إلى مربين، وتحولت الجامعة إلى مدارس. الجامعة كانت قبل سنوات فضاء للحوار الفكري، فضاء للنقد، وليس فقط فضاء للتربية والتلقين.

أزمة الجامعة أيضا هي أزمة غياب أساتذة النقد في الجامعة، وهي تنعكس على بلورة النقد، سواء رؤية أو حركة نقدية عربية جيدة. الآن لا أرى في العالم العربي كثيرا من النقاد المتميزين، إنهم مجموعة قليلة جداً أمام 20 مليون جامعي أعتقد ان هذا كارثة. هناك ناقد كان يبشر بالخير ونشر كتابين أو أكثر في اتحاد الكتاب العرب في دمشق، وكان له ملاحظات في القصة القصيرة وغيرها، وعندما أصبح له كرسي في الجامعة أخذ الكرسي وسكت. وكذلك فعل خليل الموسى في جامعة حلب. إذاً، المشكلة أن أساتذة النقد الأدبي في الجامعة انفصلوا عن آلية الإبداع، وأحيانا يتميزون بأبوية كبيرة باعتبارهم لا يتنازلون إلى قراءة مجموعة قصصية في يد شاب ما. كل هذه الأمور ليست صحية. لقد كتب السيد قطب عن نجيب محفوظ وكان في بدايته، مما يؤكد أن الحالة كانت صحية والآن العملية غير صحية. الجامعة وأساتذة الجامعة في الوطن العربي لا يؤدون دورهم، والصحافة الثقافية في العالم العربي اختلط عليها الأمر فأصبحت هي التي تنوب عن الجميع.

■ هذا كله ينفي الكلام عن النهضة المتوقعة أو المأمولة.

■ في البداية هناك كارثة الجامعة مقارنة مع النهضة. حينما يفلس النظام السياسي ويفلس النظام العسكري، ويفلس النظام الاقتصادي في العالم العربي، ماذا بقي لنا؟ هذا اللقاء الذي بيننا هو كل ما بقي لنا. ندوة الرحالة العرب والمسلمين، وهذه الحركات التي تقوم في الإمارات العربية، في مصر، في الجزائر، في المغرب، في المهجر، بين أدبائنا الموجودين في المهجر... هذه الحركات تبشر بإمكانية حدوث لحظة ثقافية، أعني أساسها الثقافي.

■ أين وصلت الرواية الجزائرية برأيك؟ وأين موقعها في العالم؟

■ الرواية الجزائرية، أتصور أنها دخلت العالم من بابين باب اللغة العربية وباب اللغة الفرنسية وربما هذا هو الذي يجعل خطابها ثريا، وأغلب أدبائنا يقرؤون بلغتين، ومن يقرأ بلغتين له مخيلتان أو أكثر، هذا المكسب في اللغة جعل الرواية الجزائرية في تصوري تعطي نماذج متميزة. كنا نتحدث الآن مع صديقنا رشيد بو جدرة، وأعتقد أن رشيد واحد من الروائيين الأساسيين في الرواية العربية وفي الرواية الفرنسية. لنا مثلاً الآن من الروائيين الجدد ياس مينة خضرا الذي أصبح ظاهرة كبيرة في الرواية في أوروبا، وللأسف يبدو لي أن العدد الأكبر من الرواية الجزائرية مكتوب باللغة الفرنسية أكثر من اللغة العربية، ولكن هناك نماذج أساسية في اللغة العربية أذكر مثلا ما يكتبه السايح الحبيب يكتب بلغة جميلة، لغة صوفية عالية. ما تكتبه أيضا فتاة حصلت على جائزة «أبوليوس» أخيراً عمرها 18 سنة كتبت رواية اسمها «زنادقة» وهي أول نص لها، اسمها سارة حيدر، فهي ظاهرة جديدة.. أيضا ما تكتبه أحلام مستغانمي يضيف إلى الأدب العربي ويضيف إلى الرواية الجزائرية تنوعا آخر وصوتا آخر. ما تكتبه فضيلة فاروق أيضا وغيرها من النساء هو صوت جديد يضيف إلى حساسية الرواية العربية أصواتا جديدة.. ما هو موجود أيضا بالرواية الجزائرية هو أن هناك الآن ظاهرة صعود الرواية باللغة الأمازيغية بالجزائر وهي ظاهرة نلحظها باستمرار. أخيرا حصل على جائزة «أبوليوس» روائي باللغة «الأمازيغية» وهذا ما يؤكد على أن تنوع هذه الخطابات اللغوية يثري الرواية، ويثري متن الرواية.

■ هناك خلاف على نشوء الرواية العربية والعالم الذي تعبر عنه: الروائي خيري الذهبي في دمشق يعتبر أن الرواية هي بنت المدينة، بينما علي أبو الريش الروائي من الإمارات العربية يعتبر أن الرواية ليس لها حدود ويمكن أن تكون من الريف، كيف ينظر أمين الزاوي إلى الرواية؟

■ أنا يبدو لي أن مفهوم الريف ومفهوم المدينة في العصر البرجوازي الأوروبي تغير تماما.. الآن في الريف تجدين الواحد يجلس أمام التلفزيون في قريته، وتجدين آخر يركب أفخم السيارات، يعني العلاقة الريفية لم تظل كما كانت عليه في القرون الماضية، وكثير من أصدقائنا الذين يريدون أن ينظروا للرواية يعتقدون أو يذهبون إلى مفاهيم جورج لوكاتش «لوسيان غولدمان» أو إلى غيرهم، وأنا دارس هؤلاء النقاد، أعتقد أن مفاهيمهم من الناحية الاجتماعية لا تنطبق كثيراً على الرواية العربية. العالم العربي تأسست فيه المدينة. حلب مدينة، دمشق مدينة، تيلمسان مدينة، بجاية مدينة،

أمين الزاوي (القدس العربي)

هذه مدن كبرى لها تاريخ عريق جداً. لكن هل الرواية يجب أن ترتبط بالمدينة حتى تكون رواية؟ لا أعتقد، الآن مع جيلنا الجديد ومع حضارة المدينة، اختلطت حضارة الريف مع حضارة المدينة، أغلب المثقفين العرب هم نصف مدنيين أو نصف ريفيين، هم ليسوا ريفيين تماما وليسوا مدنيين تماما، إذاً هناك مرور بين القيم الحضارية الريفية إلى المدينة والقيم المدنية إلى الريف، وأعتقد أيضا أن علاقتنا مع الغرب كسرت هذا التقسيم الميكانيكي ما بين الريف والمدينة.

■ أنت درست في دمشق حصلت على شيء من ثقافة المشرق وعندك من ثقافة المغرب برأيك ما هو النسيج الذي يربط بينهما: التراث أو اللغة أو التاريخ أو العلاقات التجارية ورحلات الحج وطلب العلم، وما هو تأثير دمشق عليك؟

■ أولاً: أنا أكن لدمشق حبا عميقا وأعتقد أنني تعلمت من دمشق ليس فقط الجامعة بل الحياة الإجتماعية والكثير من الأشياء. هذا المرور الذي قضيته في دمشق وهو أربع سنوات.. وحينما ذهبت إلى اوروبا وبقيت أيضا خمس سنوات كنت أشعر بتوازن مريح جداً. أن تعيشي في المشرق وتعيشي في أوروبا، هذا يسمح لك بأن لا تكوني غريبة لا في المشرق ولا في المغرب العربي. هذا التوازن جعلني أعتقد بأن كثيرا من الثقافات عميقة في المشرق، ولكن ما يهم هو الخلل القائم في هذه الثقافات، هو توصيل هذه الثقافات. نحن لا نملك توصيل ثقافتنا إلى الآخر، لا نملك حضارات إرسال هذه الثقافة إلى العالم. وأعتقد أن ندوات الرحالة مهمة في هذا الاتجاه. ما يجمع المشرق بالمغرب هل هو الثقافة؟ أعتقد أن كل الوسائل الأخرى باءت بالفشل: العلاقات السياسية، الوحدة العربية، الوحدة الاقتصادية، على كل المستويات باءت بالفشل، ولكن الشيء الوحيد الباقي أو ركب الإنقاذ الوحيد هو الجانب الثقافي.. أعتقد أنه الجسر المدود حينما يقرأ محمود درويش قصيدة في المشرق، أو يقرأها في مكان ما في المغرب فالخطاب يمر دون أن يحتاج إلى بنك أو إلى سلطة، أو إلى إدارة، الخطاب يمر مباشرة. إذاً الثقافي هو رهان المستقبل.. وأعتقد أن المثقف والمثقفين بشكل عام يتحملون رهان الدخول في هذه الألفية القادمة أكثر من العسكري الذي فشل والسياسي والاقتصادي الذين باؤوا بالفشل.. مسألة الدين أعتقد أن الدين في العالم العربي كان في عصر النهضة عاملاً موحداً أو قناة توصيل، ولكن مع تسييس الإسلام أصبح ظهور النعرات الدينية في المشرق العربي وفي المغرب العربي وظهورها في بعض التيارات الدينية السياسية، تم تكدير الدين أي تلويث الدين بالسياسة. العرب كانوا قبل زمان حينما نجد الأخطل وهو مسيحي مع جرير وهو مسلم، لم يكن الدين هو الأول، إنما الثقافي، الحضاري، الشعر هو الأول. منذ السبعينات بدأنا نمر بنوع من الأزمة، وخاصة منذ تفكيك الاتحاد السوفييتي واعتقدنا بأن الدين كفيل بالإجابة على هذه الأزمة، لماذا؟ لأن الثقافي كان محاصراً بدكتاتورية السلطات، واعتقدنا بأن الدين فيه حرية ممارسة السياسي داخل الدين. الثقافة أنك تكتب شعرا ناقدا أو غيره فهذا ممنوع، أما الدين فهو موجود في المساجد وفي القلوب وفي القرآن، لكن عملية التسييس أساءت للدين.

أول فعاليات معرض القاهرة للكتاب:

رجل طائر على جناح «ضيف الشرف»!

القاهرة ـ «القدس العربي»

ـ من محمود قرني:

تتواصل فعاليات معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الثامنة والثلاثين. وقد بدأ النشاط الثقافي للمعرض صباح السبت الحادي والعشرين من كانون الثاني (يناير) الجاري وهي الفعاليات التي تم تمديدها من الثالث على الثامن من شباط (فبراير) القادم، بعد أن تعذر استمرار أعمال المعرض بسبب الفعاليات شبه اليومية لكأس الأمم الإفريقية التي يقام شطر منها على ارض ستاد القاهرة المجاور لمعرض الكتاب، وكانت جهات الأمن قد قررت في وقت سابق قصر مواعيد العمل بالمعرض أيام المباريات من العاشرة صباحا حتى الثالثة عصرا تجنبا لأية تكتلات جماهيرية قد تنشأ عن تلاحم الجماهير الغفيرة في استاد القاهرة ومعرض الكتاب.

ومع بداية النشاط الثقافي للمعرض لم يتغير إيقاع الحضور شبه الخافت لرواده، ربما لأسباب استمرار امتحانات نصف العام بالإضافة إلى المسابقة الكروية الكبرى لكأس أمم إفريقيا، أيضا بدت مظاهر العشوائية وغياب النظافة على الكثير من أنحاء المعرض وطرقاته وتكدست مخلفات الورق والأطعمة في شوارعه دون عناية تذكر بالمظهر العام، في الوقت الذي ارتفع فيه سعر تذكرة الدخول بنسبة مئة بالمئة أي من خمسين قرشا إلى جنيه وهو مبلغ كبير بالنسبة لأسرة تتكون من سبعة أو ثمانية أفراد، حيث تتعامل الكثير من الأسر مع المعرض باعتباره نزهة مفضلة لأنها زهيدة الكلفة.

ومن ناحية أخرى أُجبر الدكتور ناصر الأنصاري رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب على إزالة الأسوار التي أقامها أمام دور النشر لا سيما المصرية ومنها والتي كانت تحجب رؤية جمهور الحضور، وقد برر الأنصاري ذلك بأن السور يداري خلفه عشوائيات كثيرة وكان يقصد دور النشر المصرية، وهو الأمر الذي دفع اتحاد الناشرين المصريين إلى عقد اجتماع عاجل لإجبار الأنصاري على إزالة السور ومطالبته بتقديم اعتذار عن تصريحاته كما هدد الاتحاد انه في حالة عدم الاستجابة لمطالبه سيقوم بالانسحاب وإقامة معرض مواز، وقد طلب وزير الثقافة الاجتماع إلى الاتحاد برئاسة الناشر ورجل الأعمال إبراهيم المعلم الذي أعلن اتحاد الناشرين العرب وعقب الاجتماع أنه تمت إزالة السور غير أن الدكتور ناصر الأنصاري لم يقدم اعتذاره المأمول، وقد صرح المهندس إبراهيم المعلم بأن اتحاد الناشرين في انتظار هذا الاعتذار.

وفي حين أعلنت الهيئة عن التعاقد مع إحدى الشركات لإدارة المعرض لم يبد أي تغيير من أي نوع على شكل إدارته، بل حدث ما هو أسوأ من حيث التجهيزات حيث تعطلت عدة مخيمات عن العمل وتم إلغاء الندوات فيها طيلة يوم السبت بسبب عدم وجود كهرباء بهذه المخيمات وعدم وجود مكبرات صوت وبدت المخيمات مظلمة كأنها مقابر مصطنعة.

وقد قالت الكاتبة سهير المصادفة التي تشرف على مخيم الرواية أنها ستتقدم بمذكرة رسمية ضد قطاع الشؤون الهندسية بالهيئة لإخلاء مسؤوليتها عن هذه الأزمة.

الرجل الطائر وضيف الشرف

أما أطرف ما شهده معرض الكتاب صبيحة يوم السبت فهو مفاجأة الرواد بوجود رجل معلق في الهواء وعلى بعد حوالي اربعة أمتار من الأرض أمام مدخل سراي ألمانيا 2ضيف شرف المعرض.

الرجل ألماني المخبر والمظهر، نحيف نسبيا، يرتدي بزة رمادية، يقف وقد وضع يده اليمنى في خصره بينما تستند يده اليسرى على الحائط وقد التفت ساقاه على بعضهما البعض وكأنه في وقفة استرخاء طويلة، وقد التف عدد غفير من الجمهور حول الرجل الذي لا تهتز منه شعرة بينما ارتفاعه عن الأرض يتجاوز الثلاثة أمتار كان الرجل يتبادل الضحكات مع الجمهور ويرد على الموبايل دون اكتراث، بينما عيون الجمهور تدور حوله باحثة عن شيء يتعلق به من أعلى أو شيء غير مرئي يرفعه على الأرض، لكن شيئا من ذلك لم يكن موجودا فقط كان يستند بيد طبيعية على الحائط.

بعد مرور حوالي ساعتين عاد الجمهور ليجد قضيبا من الحديد وكف اعزل ملصق على الحائط لكن الرجل كان قد غادر مكانه، وكانت الحيلة الألمانية التي قصدت إلى جذب انتباه الجمهور قد انطلت على الكثيرين الذين غادروا بينما الحقيقة فسرها القضيب الحديدي والكف حيث تم إدخال يد الرجل داخله وتم ربطها معا مع ربط جسده بعدد من الخيوط السميكة متصلة بهذا القضيب.

دفعني الأمر لاستشراف جناح الضيف الألماني الذي جاء مخيبا للآمال في المساحة المخصصة له وفي سوء التنظيم ودور النشر الملتصقة بالمساحة الصغيرة التي حازها الألمان، كان ثمة ندوة حول الاستشراق لا يتمكن الحضور من الاستماع على شيء فيها بسبب ضجيج الباعة والرواد الذين لا يفصلهم سوى حاجز رمزي من الحبال عن الندوة ومن يتابعونها ويتحدثون فيها، ويبدو أن مصر بضيافتها أساءت للثقافة الألمانية التي تستحق أكبر من ذلك بكثير، في الوقت الذي كانت تقصد فيه أن ترد الجميل على الاستضافة الألمانية لمعرض فرانكفورت للثقافة العربية في العام قبل الماضي.

وكان قد تم افتتاح الجناح الألماني بالمعرض بحضور الدكتورة هدى وصفي رئيس مركز الهناجر ورئيس تحرير مجلة فصول والسيد محمد غنيم وكيل وزارة الثقافة على جانب مارثن كوبلر السفير الألماني بالقاهرة ويوتا ليمباخ رئيسة معهد غوتة ومدير معرض فرانكفورت يورجن بووس ومدير الإذاعة الألمانية إيرك بترمان.

وقد أشارت رئيسة معهد غوتة إلى أن التبادل الثقافي لمعاهد غوتة في جميع أنحاء العالم يعد أهم وسيلة لدينا لكسب الاحترام والثقة المتبادلة بين الثقافات المختلفة، من خلال ترسيم بنية قوية في البلد المضيف، وأضافت أن المعهد يتوجه إلى جعل المعلومات حرة التداول لأن الأماني تبقى إقامة تبادل منفتح للخبرات والمعارف ووجهات النظر، حيث أن الحوار يمهد الطريق لتعايش سلمي وآمن بين شعوب الحضارات المختلفة وأن الإتاحة الحرة للمعلومات هي المقدمة لإثمار هذا الحوار.

و أضافت ليمباخ أن القراءة بالنسبة للروح بمثابة الرياضة بالنسبة للجسد، ولهذا فإن الكتب تسهم بطريقتها الخاصة في نجاح التفاهم والتواصل الفكري والثقافي وفي العام قبل الماضي كان العالم العربي هو ضيف شرف معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، وقد اكتسبت المنافسات بعين العالم العربي والعالم الغربي أهمية خاصة لا سيما أن تبادل الأفكار والمعلومات كان يتم في نطاق محدود لفترة طويلة.

إننا مطالبون على نحو خاص، وفي وقت تسيطر عليه أشكال متعددة من التوتر بين مختلف الحضارات، أن نجري بيننا تبادلا وتعاطيا ثقافيا وأن نلتقي معا لقاء يتميز بالصراحة والوضوح والتسامح وفي معرض للكتاب لا يقتصر الأمر على ما هو أكثر من الأدب والنتاج الفكري. إن المعرض فرصة لنقل المعلومات والتجارب والتدرب على إحلال الذات محل الآخر على المستوى الثقافي.

في الوقت نفسه صحب الدكتور ناصر الأنصاري السفير الأمريكي بالقاهرة فرانسيس ريتشاردوني في افتتاح الجناح الأمريكي المشارك في المعرض الذي ضم عددا هائلا من العناوين الإنكليزية إضافة إلى ركن مترجم إلى اللغة العربية خاصة مطبوعات الجامعة الأمريكية كدليل على التبادل الثقافي والعلمي.

وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة قد أعدت برنامجا لحفلات التوقيع للمؤلفين الذين صدرت أعمالهم مترجمة للإنكليزية من الجامعة ومعظم هذه المطبوعات ينتمي إلى الرواية ويأتي بين هؤلاء إدوار الخراط، جمال الغيطاني، إبراهيم عبد المجيد، زاهي حواس، سلوى بكر، سمية رمضان، محمد البساطي، مريد البرغوثي، ميرال الطحاوي وهالة البدري.

على جانب آخر يشهد الجناح الفرنسي بالمعرض نشاطا مكثفا يدور حول مشاكل وهموم صناعة الكتاب وفكر الإصلاح وإشكالياته، وسوف يستضيف الجناح الفرنسي عددا من الكتاب والمفكرين والمترجمين منهم مصطفى خياطي أمين مكتبة الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية بالمركز الثقافي الفرنسي والمترجم جمال شحيد الذي سوف يتحدث عن فكر الإصلاح في العالم العربي، وسوف يقدم الجناح الفرنسي عددا من الندوات في هذا الإطار منها: الانتخابات والديمقراطية في مصر، من بونابرت إلى بوش، إشكالية الإصلاحات المفروضة على الشرق الأوسط من الخارج. وفي أول أيام انطلاق النشاط الثقافي في الجناح الفرنسي تحدث «آلان روسيون» عن كتاب «الشراكة الأورومتوسطية» وكتاب الانتخابات والديمقراطية في مصر لسارة بن النفيس، والمناهج الفرنسية لتعليم اللغة العربية لفريديك إبيتر وكتاب «المجتمعات الريفية في العهد العثماني» لمحمد عفيفي. كذلك تحدثت دنيا أبو رشيد مدير قسم الترجمة بالمركز الثقافي الفرنسي عن آخر إصدارات القسم الذي تتولى إدارته، أيضا تحدثت «جون إيف مواسيرون» عن معهد أبحاث التنمية وهو مؤسسة عامة حكومية فرنسية تهتم بالتنمية مثل كثير من المراكز البحثية في فرنسا وهو مركز يعمل بالشركة مع بعض دول الجنوب من بينها مصر ويصل عدد فروعه في العالم إلى نحو ثلاثين مركزا تمثيليا لا سيما في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وتركز إدارته منذ بضعة أعوام على منطقة البحر المتوسط حيث الاهتمام بالتنمية وهو موجود في مصر منذ نحو عشرين عاما ويشمل المكافحة البيولوجية والعمران.

ورغم إلغاء عدد من الفعاليات في اليوم الأول كما حدث في مخيم عكاظ الشعراء ومخيم الرواية إلا أن عددا من الفعاليات قد انعقدت في مواعيدها رغم قلة جمهور الحضور.

ففي ندوات المحور الرئيسي وتحت عنوان التفرع الثقافي في ظل العولمة شهدت قاعة 6 أكتوبر ندوة موسعة أدارها الدكتور مصطفى الفقي وتحدث فيها الكاتب الإسباني جوتزالو فرناندیز والفرنسي دينيس بريال وطارق حجي والدكتور عبد الوهاب المسيري من مصر.

أما سراي 15 فقد شهدت ندوة عن ثورة الاتصالات وأثارها على ثقافة الشباب وادارها الدكتور محمد حافظ دياب وتحدث فيها سهير وسطاوي والدكتور نبيل علي أما المقهى الثقافي فقد أقام ندوة تحت عنوان «هابرماس ومدرسته فرانكفورت» تحدث فيها خليل كلفت، سعد هجرس، عصام عبد الله، وأدارتها الدكتورة وفاء إبراهيم، هذا بالإضافة إلى سيل من الندوات والموائد المستديرة التي ندر عدد الحضور فيها.

وتتكرر في كل عام مشكلة الشعر حسبما يشير البرنامج الذي تقدمه الهيئة حيث اقتصرت الدعوات المصرية على اربعة شعراء عرب لا يمثلون الخارطة الفاعلة فيها، وقد اقتصر الحضور المصري للشعراء الكبار على عدد من الأسماء دون أدنى معايير فقدتم استبعاد محمد عفيفي مطر مثلا ووضع فاروق شوشة بديلا له، وقد تم تخصيص أمسية منفصلة لكل شاعر، بينما أقامت الهيئة في ركن قصي من المعرض مخيما يطلقون عليه عكاظ الشعراء وهو يقدم يوميا يربو على الخمسين اسما تحت زعم إتاحة الفرصة للجميع من كافة الأقاليم، ولم يكن غريبا في هذا الإطار أن تعلن إدارة المعرض، بسذاجة غير معهودة، وبفخر لا يحسدها عليه أحد، أنها ستقدم خلال المعرض ألف شاعر!!

احد المشاركين في معرض القاهرة للكتاب يحمل اول عدد من جريدة «الاهرام»

جهد توثيقي للصحافة الفلسطينية في النصف الاول من القرن العشرين

أسعد عبد الرحمن*

■ ينتظم هذا الكتاب** بين دفتيه جملة من الموضوعات والقضايا المتصلة بعنوانه العريض حول صحافة فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين.

يقع الكتاب في (244) صفحة قسمته المؤلفة إلى تسعة فصول تفاوتت في الكم والنوع من فصل لآخر وحاولت أن تغطي موضوعات شتى تناولت خلالها العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فلسطين وكذلك الثقافية التي كان من شأنها التأثير في صحافة فلسطين ونشوئها وتطورها. كما حاولت المؤلفة توضيح أن الصحافيين والكتاب وبخاصة ما لهم من صفة القيادة والتأثير وتحريك الجماهير.

والحق يقال إن الملاحق التي زودت بها الكاتبة هذا الكتاب هي إضافة جيدة لمادته ولها من الفائدة ما ينعش ذاكرة القارئ ويعرفه بأقلام وصحف فلسطينية تاريخية صدفت في حقبات متفاوتة من تاريخ فلسطين. ناهيك عن بعض التراجم لصحافيين فلسطينيين أثروا الحركة الصحفية.

وترى الباحثة أن ما يميز هذا الكتاب ـ كما جاء في مقدمتها له ـ هو إلمامه بجوانب مختلفة تتصل بالصحافة الفلسطينية وتؤثر فيها: من عوامل ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وربط هذه العوامل مجتمعة. وهي تقرر في موضع آخر من المقدمة أن كتابها هذا جاء استجابة لتشجيع بعض المختصين لما له من دور في سد الفراغ في مثل هذه المعلومات الذي تحتاجه المكتبة العربية.

ـ في الفصل الأول من هذا الإصدار تقدم الباحثة مدخلا عاما يتعرض لوضع فلسطين في الفترة موضع الدراسة، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والحديث هنا ينصرف إلى السكان وطبقاتهم الاجتماعية والمهنية من ملاك وعمال وفلاحين. ولا تنسى في هذا المقام أن تعرض وضع التعليم والثقافة والمدارس، آتية على ذكر بعض المدارس المشهورة والكليات مثل الكلية العربية والرشيدية وغيرهما ومورردة أيضا أسماء بعض القيادات الفكرية والثقافية آنذاك وموضحة دور المثقفين الفلسطينيين وحسهم القومي والوطني. ثم تتطرق إلى الدور الكبير الذي أدته الصحافة العربية في فضح الحركة الصهيونية قبل فترة الانتداب، وتعمد بعد ذلك إلى عرض موجز للصحافة الفلسطينية نشوءا وانطلاقا متعرضة للعوامل التي ساعدت في هذه المسيرة، وتركز على دور هذه الصحافة الوطني وبخاصة تصديها لوعد بلفور والمؤامرات على الوطن. وتورد نبذة عن إنشاء الجمعيات الوطنية تحت الاحتلال البريطاني موضحة دورها القومي وبخاصة في غياب الصحافة الفلسطينية.

ـ يتحدث الفصل الثاني عن الانتداب البريطاني بين (1920 ـ 1929) ومقاومة وعد بلفور وما أدته الصحافة في فلسطين آنذاك من فضح الصهيونية والاستعمار البريطاني، عارضة تطور الصحافة الفلسطينية في هذه الفترة وظهور صحف جديدة مثلت الكتل والتيارات الوطنية، مبرزة دورها في المحن ومواجهتها للطامعين وأعداء الأمة. ومع هذا فالمؤلفة تورد سلبيات... مسيرة الصحافة الفلسطينية آنذاك وبخاصة لدى ظهور النعرات الطائفية ومعارك الكتل السياسية، مما يعد إحقاقا للحق من جانب الباحثة، وبخاصة وأن تلك الصحافة انحدرت ـ في خضم تلك الحقبة ـ إلى مهاترات شخصية وطائفية. كما تورد الباحثة في ختام هذا الفصل جزءا عن الصحافة والمرأة الفلسطينية يشرح دور المرأة الفلسطينية النضالي.

ـ وتبين الباحثة في الفصل الثالث من الكتاب المرحلة النهائية للصحافة الفلسطينية بعد هبة البراق (1929) والتي امتازت بظهور الدور الوطني وتناميه، وتغطياتها لثورة القسام وإذكائها الروح الوطنية. وجاء هذا الفصل باقتباسات من الصحافة توضح هذا الدور ـ كما جاء على ذكر وضع قانون الصحافة السيء في عام 1933 وقوانين الطوارئ ذات الأثر السلبي والظالم للشعب والصحافة معا. ويعرض هذا الفصل صحف الأحزاب الفلسطينية موضحا أن أولويات الصحف ما بين عامي 1930ـ1935 تركزت في: الأرض والفلاحين، الكتاب الأبيض، الكتاب الأسود، نشاطات الحركة الوطنية، وانتقام السلطة من الصحافة. وكمثال بارز فقد جاء اهتمام الصحافة كبيرا بإعدام بريطانيا للمجاهدين الثلاثة: عطا الزير، محمد جمجوم، فؤاد حجازي في عام 1929، وخصص بعضها أعدادا مستعجلة وخاصة. ويواصل الكتاب في هذا الفصل وبإسهاب شرح مواكبة الصحافة للأحداث الجسام في فلسطين والنضال في سبيل الحركة ومقارعة المحتلين والصهاينة، فأصبحت هذه الصحافة مثل جماعات الثوار تخيف بريطانيا، فكان قانون الطوارئ ـ سابق الذكر ـ والتضييق على الصحفيين.

ـ ويعد الفصل الرابع امتدادا لموضوع تطور الصحافة موضحا دورها البارز في إسناد إذكاء نار الثورة الفلسطينية الكبرى في عام 1936، والإضراب الكبير بما شكل من مادة دسمة للصحافة آنذاك، وكانت فرصة لإبراز بطولات الشعب الفلسطيني، ومضي الصحفيين في دورهم هذا رغم ما تعرضوا له من سجن وضرب. وجاء إضراب الصحفيين في 28 ـ 1936/5/30 ليجسد الوقوف مع النضال والشعب. ولقد جاء ذلك في قرارات اتخذها قادة الصحافة آنذاك من إضراب، وعدم نشر بلاغات رسمية، وتحية اللجان العربية المناصرة لفلسطين، وامتناع الصحف الفلسطينية عن نشر أي إعلانات يهودية، واستنكار اضطهاد الحكومة للصحافيين. لكن الصحافة استجابت للوساطات العربية ـ بعد أن أدت دورها على خير ما يكون ـ ورجعت لتصنيف كيف عادت حياة فلسطين الطبيعية إليها بعد الأحزاب. ورغم هذا فقد أقدمت السلطات البريطانية على إيقاع الجزاء والعقاب بالصحف الفلسطينية التي أججت نيران الإضراب الكبير.

ـ وخصصت الباحثة الفصل الخامس لتبيين دور الصحافة في المرحلة الثانية من الثورة الكبرى (1937 ـ 1939) موضحة أن الثورة كانت مادة الصحافة بما نشرته وتناقلته من مجريات الأحداث في تلك الفترة، حيث استمر صدور صحف جديدة كل سنة، وصحف حلت محل صحف أوقفتها السلطة المنتدبة. وبينت الكاتبة مواد الصحافة وأولوياتها في تلك الفترة مثل: الثورة، تصديها لمشروع التقسيم (1937)، مؤتمر بلودان، والمؤتمر النسائي الشرقي في القاهرة، والكتاب الأبيض الشهير في عام 1939، واهتمام الصحافة بإبراز دور الفلاحين في الثورة ونشر بيان اللجنة العربية الكبرى وترويجها للكوفية والعقال كلباس موحد للرأس لحماية الثوار كما نشرت في نهاية الفصل صورا للمعتقلين.

ـ وفي جزء هام من هذا الإصدار تبرز الكاتبة ما قامت به الصحافة من جهود وكونها أصبحت مصدر معلومات لنقل أخبار الثورة والثوار للمعتقلين والسجناء. كذلك، ما قامت به الصحافة من فضح أساليب المحتلين في التعذيب والبطش بحقهم موردة أسماء بعض الشخصيات التي عانت من السجن والاعتقال، كما نشرت القصائد الحماسية والشعر الثوري الذي يحرض على المقاومة والنضال.

ولم تنس الباحثة أن تضع في نهاية هذا الفصل (للتوثيق) نماذج مما نشرته الصحف في تلك الحقبة وبخاصة الكاريكاتير السياسي.

كما أن الكاتبة تثبت حقيقة افتخار الصحافة الفلسطينية آنذاك بالعقاب الذي تعرضت له واعتبرته وساما للشرف تتباهى به.

ـ ويتحدث الفصل السابع (وليس الثامن كما أثبتت المؤلفة في مقدمتها) عن الإذاعة الفلسطينية التي أنشأها الانتداب للرد على الدعاية الألمانية الموجهة، وفي محاولة للوصول لقطاع عريض من الناس. وأبرزت الباحثة هنا دور موظفي الإذاعة العرب ومساهماتهم وأوردت أسماء بعضهم، وكذلك أتت على ذكر مشاركة المثقفين العرب في برامج الإذاعة، بما نتج عن منافسة الإذاعة للصحافة في وقت الركود السياسي (1942ـ 1948)، دون أن تنسى إثبات هجرة المذيعين الفلسطينيين، في غمرة تلك الفترة، للدول العربية للعمل في إذاعاتها.

ـ وأما كتم صوت الفلسطينيين وآليات القمع تحت الانتداب البريطاني فكانت مادة الفصل الثامن ـ وأيضا ليس السابع كما تقرر الباحثة في مقدمتها للكتاب ـ وقد تضمن هذا الفصل ما أصدرته سلطات الانتداب من قوانين للمطبوعات ومكتب لها وحددت مسؤولياته، وعمدت الباحثة إلى تزويد الفصل بتقارير سرية كانت ترسل لوزارة الخارجية في لندن.

ـ في الفصل التاسع، تناولت الباحثة المرحلة الأخيرة للصحافة الفلسطينية قبل وأثناء قيام دولة الاحتلال في عام 1948. وتعرض هذا الفصل لما برز من أحداث فرضت نفسها وعكست النشاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما ظهر أخيرا من تحيز الانتداب البريطاني السافر للصهاينة وإيصال القضية إلى الأمم المتحدة وصدور قرار تقسيم فلسطين الجائر سنة 1947، حيث قامت بعد ذلك دولة الكيان الصهيوني. وتقرر الكاتبة ـ وهو من أبرز أجزاء هذا الفصل والكتاب ربما ـ أن أولويات الصحافة الفلسطينية في تلك المرحلة تركزت في محاولة تعزيز الروح القومية العربية، وإبراز دور القيادات الفلسطينية السياسية وإنشاء صندوق إنقاذ أراضي فلسطين، وجهودها لإحياء الروح المعنوية. كما توضح دور الصحافة في مواجهة العصابات الصهيونية ونشاطها المحموم وبضمنها مذابحها ضد الفلسطينيين.

وبعد فإن هذا الكتاب يعد إسهاما جيدا في الجهد التوثيقي الصحفي. ومن المؤكد أنه محاولة جادة لإحقاق الحق ونسبة الفضل الصحفي إلى أهله. على أن الملاحق التي أثبتتها الباحثة في نهاية الكتاب تعد جزءا بارزا من الكتاب وأضافت لمادته جهدا توثيقيا جيدا ضم معلومات أساسية وببليوغرافية عن الصحف والإعلاميين وسيرهم. وعموما فهو كتاب قد أضاف إلى المكتبة لبنة أخرى في مضمار التوثيق ويعد إسهاما في التأريخ للوعي الفلسطيني بما يمكن أن يسند الصراع «مع الآخر» لإحقاق الحق.

---

* كاتب فلسطيني

** الكتاب: صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن (1900ـ 1948)

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر | بيروت

تأليف: د. عايدة النجار الطبعة الأولى